كتاب ضد أبيون

مقدمة المترجم:

إن العمل الأعظم الذى كرس المؤرخ **فلافيوس يوسيفوس** (= **يوسف**) كل جهده لإنجازه طوال حياته كان عمله المشهور عن **الآثار اليهودية القديمة** Ioudaikes Archaiotêtes، وليس المقصود بالآثار هنا الآثار المادية وحدها كما يفهم الآن من اللفظ الاصطلاحى archaeology، بل هى تشمل كافة الوثائق والدلائل المدونة، وكافة مظاهر الإنتاج الثقافى من أدب وفن وقانون ودين وتاريخ وفلسفة وعلم. فلقد كان المؤرخ **يوسف** يشعر دوماً - شأنه فى ذلك شأن معاصريه من اليهود - بوطأة التحامل على جنسه من قبل **الشعوب والأمم الأخرى**: سواء أكانت أمما ذات حضارات أقدم من حضارة اليهود، مثل حضارة مصر أو فينيقيا، أو شعوباً ذات حضارات أحدث، مثل حضارة اليونان أو الرومان.

وفى الحق إن اتجاه الشعب اليهودى - منذ عهد سيدنا **موسى** (عليه السلام) - إلى السير فى طريق التوحيد العقائدى واحترام الناموس والكتاب المقدس، قد جعل من الصعب على الشعوب الأخرى أن تعرف على وجه الدقة كنه ما يميز اليهود فكرياً، بالإضافة إلى صعوبة تعلم اللغة العبرية، لمن لا يعرفها، من أجل الوقوف على تفاصيل هذه الثقافة التى بدت لهم غريبة الأطوار. كذلك فإن غرابة المسلك، بوجه عام، كانت هى الأخرى سبباً فى عدم الفهم أو الخوف أو التربص من جانب الرومان تجاه المسيحيين الأوائل، الذين عزفوا عن تقديس الحكام الرومان أو عبادتهم، وعزفوا عن ارتياد المعابد الوثنية؛ وهو الأمر الذى عرضهم للاضطهاد والتعذيب فى أحيان كثيرة. ولقد كان هذا هو شأن اليهود من قبلهم بطريقة أو بأخرى، هذا إذا ما أخذنا فى الاعتبار أن اليهود كانوا يمثلون أقلية دينية، بينما كانت أعداد المسيحيين فى ازدياد على الدوام، إلى أن قدر للديانة المسيحية أن تبسط سلطانها على الأباطرة أنفسهم وتجعلهم يعتنقون الدين المسيحى.

وأيا كان الأمر، فإن هذا الدافع الذى كان لدى المؤرخ **يوسف** قد حدا به إلى تأليف عمل ضخم رائع عن عراقة الشعب اليهودى وقدم حضارته وسمو اعتقاده الدينى، لأنه كان يعتقد فى قرارة نفسه أن المنصفين من ذوى الديانات الأخرى كانوا يعجبون بمعتقدات اليهود الدينية، عندما كان يتاح لهم الاطلاع عليها والوقوف على حقيقتها ومعرفتها. أما المتعصبون أو ضيقو الأفق فكانوا يَزْوَرُّون عن هذه المعتقدات، أو يحتقرونها، أو يقدمون على تعذيب أصحابها، خاصة حينما كان هؤلاء يبالغون فى التمسك بها والحفاظ عليها، بل ويستعذبون فى سبيل ذلك أشد صنوف التعذيب، ويتحملون فى صبر وجلد كافة ضروب الإيذاء.

وفى هذا السياق يأتى **كتاب ضد أبيون**، التى يمكن أن نعده بمثابة تلخيص متقن لعمله الضخم **(الآثار اليهودية القديمة)** بصورة موفقة، تمكن القارئ من استيعاب الفكر الذى استند إليه المؤرخ **يوسف** فى تدوين سفره هذا الجليل. وحسناً فعل **يوسف**، لأن هذا الكتاب - على الصورة التى وصل بها إلينا - أوجز فأبلغ، وركز فأفاد، وبعد عن التفاصيل فبين وأوضح، وجعل القراء الذين لا يعرفون سوى اللغة اليونانية وحدها قادرين على أن يقفوا على شتى كتابات الأقدمين التى تعرض لها يوسف فى عمله الكبير، وهى كتابات مدونة بلغات تصعب معرفتها إلا للقلة القليلة أو للصفوة النادرة.

وينصب عنوان الكتاب على **أبيون**، وهو مؤرخ مصرى كان يتمتع بالجنسية السكندرية ويناصب يهود الإسكندرية العداء، وألف من أجل ذلك كتاباً أنحى فيه على اليهود باللائمة، واتهمهم فى دينهم وسفه أحلامهم، وأرجع سبب ذلك كله إلى ضحالة فكرهم وحداثة وجودهم. ولقد اتخذ **أبيون** من كراهيته ليهود الإسكندرية تكأة لكى يبغض اليهود جميعاً، ويروج ضدهم الشائعات والافتراءات دون تدقيق ولا تمحيص. وكان **أبيون** قد سافر إلى روما على رأس وفد سكندرى ليشكو للإمبراطور تجاوزات اليهود كجالية سكندرية، وخروجهم على القوانين، وشغبهم وسوء مسلكهم. ولقد جاء كتاب **المؤرخ يوسف** بمثابة خطبة دفاع بليغة ضد جميع الكتاب الإغريق والمصريين الذين هاجموا اليهود فى كتاباتهم، والذين نعتوهم بتهم

مفتراة يرى يوسف أنهم منها براء. والمؤرخ يوسف يصب فى هذا الكتاب جام غضبه أولاً على ما جاء من افتراءات فى ثنايا كتابات المؤرخ المصرى الشهير مانيثون، ثم يشن الهجوم من بعده على خصمه اللدود أبيون ويفرد لذلك مساحة كبيرة. ثم يوجه هجومه من بعد ذلك إلى المؤرخين الإغريق كافة، ويخص فى الختام بهجومه الحاد مؤرخيّن إغريقييّن، هما: ليسيماخوس، وأبوللونيوس مولون.

ولقد التزم المؤرخ يوسف فى كتابه هذا بتفنيد المزاعم التى ساقها خصومه كافة، ثم انبرى بعد هذا التفنيد العقلانى الهادئ إلى دحض هذه المزاعم وإظهار تهافتها وبطلانها وترديها فى الكذب، وضعفها أمام القرائن العقلية. ولم يفقد المؤرخ يوسف اتزانه العقلى طوال قيامه بالتفنيد والدحض إلا فى مواضع معينة، جعلته يلجأ حينا لأسلوب التهكم الساخر، وحيناً لأسلوب التقريع القارص، أو التوبيخ المؤلم المقترن بتوجيه نوع من السباب الهادئ، وهو الأمر الذى يتناسب فى رأيه مع الأسلوب الهجومى الواضح الذى ساد الكتابات المعادية لليهود.

ويظفر المؤرخ يوسف عامة بالقدح المعلى فى مواجهة خصومه كافة، لأنه كان يستند فى كل رد يتلفظ به إلى الوثائق والكتب والمراجع القديمة، وينقل عنها بأمانة والتزام واضحين، ثم يعرض هذه القرائن بأسلوب منطقى هادئ، ولا يجنح إلى المبالغة إلا فى أحيان قليلة، كما أنه لا يفقد أعصابه أو ينفعل إلا فى القليل النادر. ولست أريد - فى معرض سردى لهذه المقدمة - أن أفسد على القارئ لذة الاندهاش ومتعة التشويق، فيما لو أننى قمت بتلخيص مفصل لما ورد فى هذه المرافعة البليغة من محتويات، ولذا فإننى أكتفى بالقول بأنها تتطرق باختصار إلى عدد من الموضوعات المحددة، يمكننى أن أوجزها فيما يلى:

١- تفنيد ما كتب عن اليهود من جانب المؤرخين الأجانب، وما اتهموا به من حداثة تاريخهم كأمة، خاصة وأن معظم من اتهموهم بهذا الاتهام كانوا من الكتاب الإغريق. ولقد رد يوسف على هؤلاء بأن تاريخ الإغريق يرجع إلى الأمس أو ما قبل الأمس بقليل، بينما تاريخ اليهود يرجع إلى ما يقرب من ألفى سنة، منذ عهد موسى عليه السلام.

٢- تفنيد ما ذهب إليه المؤرخ المصرى مانيثون من أن اليهود كانوا مدنسين ومصابين بالجذام والبرص وبأمراض أخرى، وأنهم طردوا من مصر على يد أحد الفراعنة بعد أن هددوا المصرين بالحرب وباحتلال بلادهم.

٣- تفنيد ما ذهب إليه المؤرخ المصرى أبيون ومعه نفر من المؤرخين الإغريق من أن اليهود كانوا يخفون داخل معبدهم رأس حمار يعبدونها، وأن طقوس عبادتهم كانت تدعو للازدراء.

٤- تفنيد ما ذهب إليه بعض المؤرخين من أن اليهود كانوا يلتهمون لحوم البشر بوجه عام ولحوم الإغريق بوجه خاص، وأنهم كانوا يكنون العداوة والبغضاء للشعوب الأخرى وعلى رأسها الإغريق.

٥- الرد بقوة على الافتراءات التى هاجمت ناموس اليهود ومعتقداتهم الدينية وشككت فيها أو أساءت إليها.

والحق أن المؤرخ يوسف قد دبج فى هذا الكتاب مرافعة بليغة أعلى فيها من شأن اليهود الذين عاشوا قبل عصره واليهود الذين عاشوا على أيامه، وفند فيها كل المزاعم، ورد على جميع الافتراءات، وأوقع خصومه فى التناقض، وجعل ما قاله بعضهم يكذّب ما ذهب إليه البعض الآخر، ووضع من ينتقدون شريعة اليهود موضع هجوم سافر من جانبه، فصب على أديانهم وشرائعهم - التى يرى مؤرخنا أنها قاصرة متهافتة - قسطاً من غضبته.

ولا يملك المرء سوى أن يشعر بالتقدير والاحترام لما يتمتع به المؤرخ يوسف من علم غزير، وسعة أفق ملحوظة، وقدرة على التفنيد المنطقى المعزز بالحجج والبراهين. إذ استند هذا المؤرخ على معرفته بلغات متعددة: فهو إلى جانب لغته الأم العبرية يعرف اللغتين اليونانية واللاتينية، ويعرف قدراً من اللغة المصرية القديمة وقدراً من لغة الفينيقيين، وإن كان اعتماده الأساسى منصباً على اللغة اليونانية القديمة التى دونت بها مؤلفاته.

غير أنه لا يمكننا القول عن ثقة بأن المؤرخ يوسف قد التزم بالموضوعية على طول الخط فى كل ما دونه أو أعلنه فى كتابه هذا: فقد جنح أحياناً إلى المبالغة، ووقع أحياناً أخرى فى التناقض، كما ارتكب فى القليل النادر بعض الأخطاء

الجسيمة. ولقد بيَّنا ذلك كله فى الحواشى التى دوناها بعد الترجمة، كما قمنا فى حينه بالتعليق على عدد من الآراء التى أوردها، إحقاقاً من جانبنا للحق وتوخياً منا للالتزام بالموضوعية. ومع ذلك ففضائل الرجل تفوق بكثير ما بدا فى ثنايا مؤلفاته من مثالب أو من عيوب، بحيث تبدو فى النهاية كالهنات، التى يقع فيها المرء نتيجة البحث الدؤوب والاجتهاد فى إعمال الفكر. ونحن فى حقيقة الأمر لا نريد أن نمنع أحداً من التحمس لبنى جلدته أو الجنوح أحياناً للمبالغة المحسوبة فى الثناء عليهم، طالما أنه يرتكز فى الأساس على منهج بحثى واضح ومقبول من ذوى الألباب. ونحن فى هذا الصدد نؤمن تماماً بأنه لا يوجد إنسان قادر على أن يكون موضوعياً مائة فى المائة، فالكمال لله وحده. وشيمة البشر أنهم يميلون بوجه عام للإعلاء من قدر أنفسهم، وللتهوين من شأن منافسيهم بشتى الوسائل والسبل. ولا تثريب على المرء لو أنه نجح فى الوصول إلى نسبة عالية من الموضوعية، من شأنها أن تغفر له ما هو مرجح أن يقع فيه من مثالب أو رؤى ذاتية، تجنح حيناً للتهويل أو المبالغة، وتوقعه حيناً آخر فى التناقض غير المقبول؛ ومن كان بلا نقيصة من هذه النقائص فله أن يرجم الآخرين بأحجار النقد الموجعة الأليمة دون غضاضة. ولكن حاشا لله أن ندع العداوة تدفعنا لإصدار الأحكام دون روية وبلا توخ للموضوعية، التى نطلبها كثيراً من غيرنا بمواصفات تعلو على القدرة الإنسانية، ولكننا لا نطلبها من أنفسنا أبدا بذات القدر الذى ننشده عند سوانا.

وختاماً أجد لزاماً علىَّ أن أشكر - فى هذا المقام - زميلى الأستاذ الدكتور **محمد خليفة حسن**، أستاذ اللغات الشرقية بجامعة القاهرة، على العناء الذى تكبده معى بغية مراجعة أجزاء عديدة من النص المترجم وحواشيه، وعلى تفضله الكريم بتصويب كتابة كثير من الكلمات اليونانية المترجمة فى الأصل عن مصطلحات أو أسماء منقولة من اللغة العبرية. فجازاه الله عنى خير جزاء، حيث إنه - فى حقيقة الأمر - عالم جليل المنزلة عالى القدر، يتميز بالخلق الرفيع والأدب الجم والتواضع، الذى لا يقدر على بلوغ شأنه سوى العلماء الثقات راسخى القدم من ذوى الكعب العالى. كما أشكر زميلى الكريم الأستاذ الدكتور **احمد هويدى**، أستاذ اللغة العبرية بكلية الآداب - جامعة القاهرة، على تفضله بقراءة التجارب المطبعية الأخيرة وتصويبه لبعض المواد التى أفلتت منى بنظرته الثاقبة ودقته البالغة، فله منى خالص الشكر وعظيم التقدير.

وكلى أمل فى أن يتمتع القارئ العربى بتلاوة هذه الخطبة العصماء التى ألقاها يوسف على العالم دفاعاً عن أمته وعن عراقتها، وأن ينظر إليها بنظرة موضوعية غايتها نشدان الحقيقة، بعد الاطلاع على وجهات نظر متعددة ومحايدة حولها. وإنى لعلى ثقة من أن المتعة الحقيقية فى هذا العمل تكمن فى الطريقة الدرامية التى عرض بها المؤرخ يوسف للتهم التى وجهت لليهود، ثم انبرى للرد عليها وتفنيدها بسلاسة ويسر، وبمنهج العلماء ذوى الطبع الهادئ الذى ينشدون الموضوعية، لا بطريقة الصوت الزاعق الهادر الصادر عن أصحاب الحناجر، أو هواة الحديث من فوق المنابر، الذين لا يلقون بالاً للبراهين أو الدلائل، اكتفاء بالتأثير الناجم عن قوة الصوت الجهورى وحدها. وإنى هنا أجد نفسى رغماً عنى منحازاً لصفة الباحث التى تيقنت من توافرها لدى المؤرخ يوسف فى ردوده المقنعة على خصومه كافة، حيث إنه لم يكن يبغى تكديس الحجج والبراهين فى تلال سرعان ما تصير إلى زوال. بصرف النظر عن مدى قوتها وتأثيرها. من أجل أن يفحم بها خصومه، أو لكى يبهرنا عن طريق الكم وحده، بل كان كثيراً ما يكتفى ببرهان واحد يرى أن فيه فصل المقال، ثم يمضى بعدها بتواضع إلى تفنيد تهمة أخرى من التهم المفتراة، بغير أن يحس بأدنى غضاضة من جنوحه إلى الاختصار. وهذا بحق هو أسلوب العالم المدقق الذى لا يملك المرء سوى أن يعجب به حتى ولو اختلف معه فى الرأى أو فى العقيدة أو فى العرف أو فى الثقافة.

وختاماً، فإننى أبتهل إلى الله عز وجل أن أكون قد نجحت فى النقل الأمين عن فكر الآخرين، لكى أفيد بما نقلته أبناء وطنى المخلصين النابهين. وإنه ليروق لى أن أجعل لسانى يلهج بهذا الدعاء شكراً لله على ما وفقنى إلى إنجازه: **رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت بها علىّ .. أحمدك ربى حمد الشاكرين .. وعلى الله قصد السبيل ... فهو الموفق، وهو نعم المولى ونعم النصير، وهو المستعان على ما يصفون.**

أ.د. محمد حمدى إبراهيم